نظرية الفاعلية التواصلية عند هابرماس

الدكتور زروخي الدراجي
جامعة المسيلة

ملخص:
لقد أصبح مفهوم التواصل من المفاهيم المركزية ليس فقط في الفلسفة المعاصرة بل في كل مجالات العلوم الإنسانية و الاجتماعية ،لأن التواصل العقلاني والاحتكام إلى المحاججة والبرهان من صنائع العقل ومميزاته اللذان يصححان الأوهام و المغالطات وكل أصناف المراوغة سواء في لغة الخطاب الفلسفي أو الخطاب السياسي والاقتصادي والتقني، وفلسفة التواصل تهدف إلى تحرير الفرد من كل هذا، إن صوت العقل مؤمن بقدرته على اختراق الأقنعة وتجاوز الظاهر إلى باطن الأمور، فحتى أعمق الجروح وأقساها لا تستطيع إيقاف تدفق طاقة البرهان الخلاقة وفيضانه الخصب .إن تبادل الحجج والبراهين في الخطاب يمنع كل دوغمائية واتكالية واستبداد فكري أو سياسي. وجاء الخطاب البرهاني عند هابرماس ليفتح مجالا لتعدد الأصوات، حواري وجدلي، ويدين الحياة الحديثة وتقنياتها لما تجانب الصواب باسم مشروع الحداثة نفسها، آملا أن يعلو شأن العقل في كل ميادين الحياة وأن تشفى الجروح التي تمزق رجال الحداثة ووفق هذا يكون التواصل المبني على الحجاج والإقناع نظرية فعالة في الفلسفة بحيث ينتقل فيها الفرد من عالم الإتباع في الخطاب إلى عالم الإقناع.

مقدمة:

ترجع فعاليات نشأة الفاعلية التواصلية لهابرماس عقب تأسيس ما يعرف بفلسفة الأنوار إذ عملت النظرية النقدية " رواد مدرسة فرانكفورت " على شن هجوم على عقل الأنوار الغربي بحجة انه انحرف عن كل المبادئ و القيم و عاد إلى مرحلة الهمجية و الوحشية الأمر الذي دفع بهم إلى التكفير بالعقل و العقلانية، " بالحضارة و التنوير " و تجسد هذا في كتابين خسوف العقل لهوركهايمر و جدلية التنوير لهوركهايمر و آدورنو معا. هنا ما كان على هابرماس إلا أن يتدخل لكي ينقذ العقل مما لحقه من تهجم حيث انطلق في مشروعه الفلسفي من أزمة الحداثة و ما بعد الحداثة و ربطها بنظريته الجوهرية التي أطلق عليها اسم " نظرية الفعل التواصلية " أو " العقل النقدي التواصلي "، وقدم فيها مفاهيم أساسية بنظرة سوسيولوجية مشخصا بذلك حال المجتمع المريض، متطرقا إلى الأسباب التي كانت وراء مرضه و من ثمة صياغة حلا نموذجيا شاملا. و عليه ما المقصود بالفاعلية التواصلية عند هابرماس ؟ و على أي خلفية فلسفية بنى نظريته هاته ؟

1/ حول نظرية التواصل :

تتجلى قيمة وأهمية هابرماس في أنه فتح الفلسفة المعاصرة على نظرية التواصل، هذا المفهوم الذي نجده حاضرا بكثرة في علم الاجتماع الألماني المعاصر، حيث استخدم هذا المفهوم من أجل تشريح البنية الاجتماعية و هذا ما سعى إليه هابرماس حينما أراد تشخيص حال العالم بشكل عام و حال المجتمعات الأوربية بوجه خاص.من هذا المنطلق قدم هابرماس المفهوم التالي، إن المقصود بالتواصل تلك"**الفاعلية الوحيدة التي في إمكانها إعادة ربط الصلة بين أطراف هذا العالم المتقطع الأوصال** "[1].

لقد سعى هابرماس من خلال التواصل بلوغ نظام عالمي عقلاني يهدف إلى توفير عوامل جديدة من داخل مجتمع ما بعد الحداثة تجعل هذا المجتمع في وضع يصعب على أفراده التصرف بعدوانية و يتحقق هذا في ظل وجود تأسيس عقلاني تواصلي.إلا أن المتتبع لتاريخ مفهوم " التواصل " والذي يعني عموما " **ظاهرة مركبة و ضرورية، تشير إلى مجموعة أصناف التواصل الإنساني فهو يتغير تبعا للآليات المستخدمة لبلورته و تبعا للمواضيع المتناولة** "[2]. لنجد أن هذا المفهوم تحقق كنظرية علمية بداية مع الأمريكي هربرت ميد " George Herbert Mead "* من خلال نظرية التفاعل الرمزي، ومع هذا قدم هابرماس نظرية الفاعلية التواصلية حيث كانت بمثابة انجازه الأكبر ، وقد استند في هذه النظرية إلى فلسفة اللغة و هذا بغية توسيع أفق النظرية ليضع لها أسس و مبادئ ارتكزت عليها منطلقا في ذلك من نقد العقل الأداتي متبعا في ذلك دروب هوركهايمر، أدورنو و ماركيوز، الأمر الذي دفع به إلى ضرورة التحرر من فلسفة الوعي – الذات– هاته الفلسفة التي تمتد جذورها إلى ديكارت، إلا أنه حصل لها شرخا و تغير منعطفها مع فلاسفة التأويل والفلاسفة البراغماتيين (هربرت ميد)و فلاسفة اللغة بالإضافة إلى المنهج الفينومينولوجي الذي أسسه هوسرل و عليه تغيرت تلك الوجهة للعلاقة القائمة بين الثنائية (الذات – الموضوع) لتغير على إثرها هذا الواقع الإنساني و تحل محلها علاقة جديدة أساسها التواصل بين الذوات أو التواصل البينذاتي " intersubjectivité ".

وتجسد هذا في نظرية الفعل التواصلي، و من ثمة نادي هابرماس بضرورة التحرر من (العقل و الذات و المجتمع) و(فلسفة الفعل)، بعد وفاته جمع تلاميذه جمعوا محاضراته تحت عنوان:Mind self and society. إن لفظ الفينومينولوجيا لم يظهر مع هوسرل، بل لقد ظهر قبله في أعمال كانط هيجل وهارتمان وغيرهم. ففي كتاب "فينومينولوجيا الروح" يستعمل هيجل لفظ الفينومينولوجيا للدلالة على التجليات المختلفة للروح، والتي تتخذ شكل فكرة مطلقة داخل الوجود. وهي تشمل عدة مستويات متدرّجة من المعرفة الحسية المباشرة إلى المعرفة العقلية الشاملة، مرورا بالمستويات المختلفة للفكرة المطلقة وما تشهده من تناقضات وصراعات وتطورات.

هذه الفلسفة على اعتبار أنها تنظر للعلاقة بين اللغة و الفعل مثلما تحدد العلاقة بين الذات و الموضوع فان هذا حتما سيجعلنا نخضع لسلطة العقل الأداتي و بالتالي لن بتخلص من النزعة التشاؤمية التي هيمنت على رواد النظرية النقدية. فالتحرر إذا يكون بضرورة التخلي عن فلسفة الوعي" الذات " من منظور هابرماس ليكون هذا بمثابة الأساس الأول الذي قامت عليه النظرية التواصلية، أما الأساس الثاني للنظرية فيكمن في أن الفعل يأخذ صورتين: فعل استراتيجي، فعل تواصلي. فالأول يتضمن الفعل الغائي العقلاني الذي يرجى من ورائه تحقيق منفعة أو غاية عقلانية و قد مثل هذا النوع من الفعل ماكس فيبر حينما أعطاه اسم "العقلنة بالقياس إلى الغاية"[3]. أما الفعل الثاني فهو الفعل التواصلي الذي لا يهدف إلى تحقيق غاية وهنا يقول " **إن أي تفاهم يتم التوصل إليه عن طريق التواصل له أساس عقلاني ذلك أن التفاهم لا يمكن فرضه فرضا من قبل أي من الطرفين أداتيا كان ذلك الفرض عن طريق التدخل في الموقف تدخلا مباشرا أم استراتيجيا عن طريق التأثير في قرار الخصم** "[4]. وعليه فالأفعال التواصلية هي

أفعال بعيدة عن الأفعال الإستراتيجية الغائية لينبذ بذلك يورغين هذا النوع من الأفعال و ينادي بضرورة الأفعال التواصلية لتستند النظرية على المبدأ الثالث و الخير و هو وجود مجتمع ديمقراطي بحق تكون فيه للجميع فرص متكافئة كالمساهمة في الحوار مثلا، ويكون لكل فرد صوت مسموع يحسب حسابه عند اتخاذ القرارات من هذا قام هابرماس بنقد العقل الغائي متخليا بذلك عن العقلانية الأداتية مركزا على العقلانية التواصلية التي تهدف إلى عقلنة الحياة الاجتماعية بأشكالها و مظاهرها المختلفة فإيمانه الشديد بالعقل و قدرته على تصور حياة اجتماعية عقلانية تواصلية دفع ببعض الفلاسفة أمثال جون رولز إلى نعته بالكانطي الجديد. إن تميزه بين العقلانية الغائية و التواصلية أفضى به إلى إيجاد نوع من المعارف تقابلها بالضرورة أنواع من مصالح على اعتبار أن المعارف الإنسانية مرتبطة بما تحققه من مصالح لذلك نجده جدد المعارف و ما تقابلها من مصالح، هذا ما أدى إلى وجود علاقة تربط بين المعرفة و المصلحة البشرية لتستند بذلك نظرية المعرفة عند هابرماس على العقل التواصلي الذي شكل أساس نظريته النقدية فكانت بذلك نظرية المعرفة نظرية اجتماعية نقدية تنطلق من أن العلوم الطبيعية و العلوم الإنسانية هي في خدمة المصالح الإنسانية و بالتالي غاية هاته العلوم تطوير الإنسان و تحريره من هذا المنطلق كشفت نظريته العلمية النقدية عن المعارف و ما تقابلها بالضرورة من أنواع المصالح فكانت كالتالي:

أ- المعرفة العلمية التجريبية التحليلية "مصلحة تقنية "" intérêt technique " وهي من اختصاص العلوم الرياضية و الفيزيائية فهي معارف عمل كما حددها يورغين أي أنها تسعى إلى تحقيق بعد غائي يتمثل في السيطرة على الطبيعة تسخيرها لخدمة أغراض الإنسان و مصالحه و هذا النوع من المعارف إنما يجد في العقل الأداتي مرتكزة[5].

ب-المعرفة العلمية " مصلحة عملية " " intérêt pratique"": وهي من شأن العلوم التاريخية و الهرومنوطقية و تسعى إلى تحقيق التفاعل البشري أي بلوغ التواصل وعمادها العقل التواصلي[6].

ج- المعرفة التحريرية " مصلحة تحريرية " intérêt d'émancipation ": وتختص بها العلوم الاجتماعية و الفلسفية و غايتها تحرير الإنسان من كل أشكال التشيؤ والاستلاب وتستند هذه المعرفة إلى العقل النقدي. فقد أدى التطور التكنولوجي إلى تراجع مكانة الإنسان ، الأولى أمام الإنسان ذاته و الثانية أمام الآلة ، ذلك أن التطور التكنولوجي أدى إلى ظهور الفوارق

الطبقية من خلال الامتيازات التي أصبح يتمتع بها أصحاب رؤوس الأموال ، دون أن تكون لهم مساهمة في خلق و إبداع هذه الامتيازات ، وأصبحت قيمة الإنسان و مكانته في ظل هيمنة الرأسمالية تقاس بمقدار قدرته على امتلاك تكنولوجيا المدنية ووسائل الحياة الراقية ، التي أصبحت حكرا على الطبقة المالكة ، و حتى العلماء أنفسهم و الذين كان لهم الفضل في إبداع التكنولوجيا المتطورة تراجعت مكانتهم أمام أصحاب رؤوس الأموال . ولم يعد الإنسان يحترم أو يعامل كونه غاية في حد ذاته ، و إنما كونه غاية لغاية أخرى ، وهذا التصنيف الطبقي للإنسان خلق نوع من التوترات داخل المجتمع ، وأدى إلى صراع غير أخلاقي بين أفراد المجتمع و تسبب في ارتفاع نسبة الجريمة ، وعلى العلوم الإنسانية في دراستها لمثل هذه الظواهر عليها أن تغوص في العمق ، و تأخذ بعين الحسبان التحكم غير اللائق في التكنولوجيا المتطورة التي تسببت في انهيار مكانة بعض أفراد المجتمع ، و من هنا يكون لزاما على العلوم الإنسانية و الاجتماعية أن تحكم سيطرتها على هذا التطور و توجهه توجيها يسمح باحترام الإنسان باعتباره إنسان وكفى .

ونتيجة لسرعة التطور التكنولوجي ، أصبح الناس يتمايّزون و يتعدون أكثر فأكثر عن معالم المجتمع السليم ، وقسم المجتمع في ظل هيمنة الرأسمالية إلى سيد وعبد ، وهذا التصنيف لطالما رفضه الإنسان ، و ثارت ضده الفلسفات في العصور القديمة ، و أصبح

وهذا معناه وجوب العودة إلى اللفظ في حد ذاته ومن الخطأ أن نعتبر التقنية أسلوب أو براعة فنية وإلا لكانت جميع أعمال الإنسان تقنية ، ومن هنا تنقلب علاقة المضايفة بين الإنسان والآلة ، وبدل أن يكون الإنسان سيدا عليها أصبح عبدا لها ، بل إن تمجيد المجتمعات الرأسمالية للآلة جعل من **<< الآلة هي التي تكون في نهاية المطاف في المرتبة العليا فتصبح و كأنها هي التي تملي أوامرها على الإنسان >>**[7] . ولم تعد الآلة أكثر أهمية وشأنا من الإنسان بالوجه العام . بل أصبحت أكثر قيمة حتى من العلماء الذين ابتكروها .

من هذا يتضح بأن هابرماس حدد لكل معرفة مصلحة خاصة بها فإذا كانت الأولى تسعى إلى تحقيق منفعة بشرية متمثلة في العمل فان الثانية تهدف إلى تحقيق منفعة فعل لتظهر الثانية كنتيجة عن الاثنين أي أنه جمع بين العمل و الفعل في حدود الممارسة وبين التحرر في إطار النظرية. لينتج عن المعارف الثلاثة و ما يقابلها من مصالح و جود عالمين[8]:

أ- عالم الأنساق قائم على أساس العقلنة الأداتية الوظيفية.

ب-عالم معيش قائم على أساس اللغة و التواصل.

ليقدم من هذا المنطلق مفهوم النشاط التواصلي إذ عرفه بأنه: " **التفاعل المصاغ بواسطة الرموز و هو يخضع ضرورة للمعايير الجاري بها العمل و التي تحدد انتظارات مختلف أنماط السلوك المتبادلة على أساس أن تكون مفهومه و معترف بها بالضرورة من طرف ذاتين فاعلين على الأقل** "[9]. إن النشاط التواصلي و إن كان جاري بين ذاتين فأكثر فإن الهدف من ورائه بلوغ التفاهم، وهذا النشاط التواصلي إنما يحتكم إلى ضوابط أخلاقية و منطقية الأمر الذي جعله يضيف مفهوم جوهري يمثل في" الحجاج " أو المحاججة "argumentation ".إذن فالنشاط التواصلي مقترن بمدى قوة الحجة التي يقدمها الفاعلون في النشاط التواصلي وفق شروط تحددها صلاحية التواصل أعطاها اسم " ادعاءات الصلاحية "validité " الحقيقة، المفهومية ، المصداقية " فالمصداقية تفرض على المستمع أن تكون لديه نية حسنة تجاه المتكلم أما الحقيقة فتفرض على المتكلم أن لا يحمل في مقولاته أي غاية أو منفعة بهذا تجد الحقيقية في العقل مرجعيتها فهي تتأسس عليه غايتها بلوغ الإجماع أما المفهومية فنجد بأن هابرماس حددها كأحد العناصر المكونة لادعاءات الصلاحية فالغرض من الفهم الوصول إلى تفاهم بينذواتي متبادل مشترك و من ثم فان "**التفاهم هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين على أساس المفترض لادعاءات الصلاحية المعترف بها باتفاق مشترك** "[10].

إن التفاهم يتم من خلال التزام الفاعلون بمختلف ادعاءات الصلاحية التي تمنح لهم نفس الفرص الحجاجية الاقناعية. من هذا المنطلق تكون غاية التواصل تحقيق البعد التداولي للغة، إذا يقوم مفهوم النشاط التواصلي، على افتراض اللغة كوسيط من أجل عمليات التفاهم، أي تلك العمليات التي يتم من خلالها الإعلان عن ادعاءات الصلاحية من طرف المشاركين و التي يمكن أن تقبل أو ترفض. من هذا التعريف نستشف بان النشاط التواصلي قد يحظى بالقبول أو الرفض في هذه الحالة كيف سيكون مصير النشاط التواصلي ؟

إن النشاط التواصلي إذا ما تعرض للنقد فانه في هذه الحالة اعتراه النقص وهنا يتم الانتقال من النشاط العقلاني التواصلي إلى النشاط الأداتي و هناك حل آخر يكمن في اعتراف الفاعلون بوجود عطب في الخطاب البرهاني عن طريق فشل أحد عناصر ادعاء الصلاحية الأمر الذي يضطر بهم إلى إعادة تبريرها و هذا ما أطلق عليه اسم " التداوليات الكلية " ليأخذ الفعل التواصلي في هذه الحالة منحى تجريبي صار يعرف " بالتداولية الشاملة " مقابل التداولية (البراغماتية) التراندستالية بالنسبة لآبل [11].إذن فغياب أحد عناصر ادعاءات الصلاحية يجعل هناك إمكانية الوقوع في الخطأ و هنا ما على الفاعل إلا أن يستعمل " التداوليات الكلية ". و هذا يتم في ظروف كلامية مثالية تضبط المناقشة البرهانية ليلخص هابرماس الظروف في كلمتين اثنين " المساواة في الفرص " و وضع النقد عماد الخطاب البرهاني، ليتأسس على ضوء هذا مجتمع تواصلي جديد يكون النقد أداة التواصل الأولى، هذا المجتمع الجديد يستند إلى ثلاثة لأسس تشكل جوهر الأخلاق التواصلية " الديمقراطية – العدالة – القانون ".

و كخلاصة لما تم ذكره نتوصل إلى القول بأن هابرماس حينما طمح إلى تشييد مجتمع تواصلي نقدي إنما انطلق من مرجعية فكرية واقعية لا ميتافيزيقية ليكون العالم المعيش بمثابة خلفية النشاط التواصلي، بهذا يكون منبع للتفاهم بين الأنا و الآخر. فهابرماس يرى انه لا يمكن الحديث عن التواصل إلا بافتراض وجود عالم معيش، فهو يفكر انطلاقا من الواقع و هو ما أسماه "بالعالم المعيش"، إذا يكون هذا العالم هو الذي يجري فيه التفاهم بين المتكلمين و السامعين. هذا العالم الذي قد يتعرض للاغتراب و التشيؤ أو كما اسماه " الاستعمار الداخلي للعالم المعيش " فحسبه بأن الأنظمة الرأسمالية كانت سببا في التشيؤ و الاغتراب.

من هذا المنطلق طمح إلى تمثل مجتمع ديمقراطي تكون فيه حرية التعبير انطلاقا من حوار عقلاني يتفهم جميع الأطراف " **أن التفاهم داخل سياق تواصلي عقلاني يضبط العلاقة بين المعرفة و السلطة ... شرط حاسم لخلق إجماع حقيقي يستطيع الفرد من خلال المناقشة الخروج من ذلك الاستعمار الداخلي ... لأن واقع السلطة ... لا توجد حقيقية إلا بواسطة إجماع ... و بمجرد ما تغيب الشروط التواصلية للتفاهم بين الذوات ... يختفي معنى السياسة و تحل القوة محل السلطة**"[12].

إن تصور هابرماس للديمقراطية قاده إلى إدخال مفهوم جديد مغاير لمفهوم المجتمع المدني تمثل هذا المفهوم ف " الفضاء العام " أو " المجال العمومي " الذي هو من اختراع الفيلسوف كانط " **إن ما يهم هابرماس من مشروع كانط هو فكرة الفضاء العمومي الذي صمم اركولوجيته هابرماس نفسه و إن كان كانط صاحب استباق و بعد نظر عميق لفضاء عمومي على مستوى الكوكب** " [13].

إذن فهذا الفضاء العمومي إنما ينشأ من مجموعة من الناس تجمعهم سمات مشتركة ويمتلكون الوظيفية النقدية التي يمارسونها ضد السلطة أي أنهم يقومون بدور الوسيط بين الدولة والرأي العام. وإذا كان فلاسفة الأنوار ومن بينهم كانط قد ضيق حدود المجال العام واقتصر الوظيفة النقدية عند الفلاسفة أي أن عامة الناس يتحركون بفضل العناصر التي تتمتع بعقلانية أكثر منهم وعليه فان هذه الفئة والتي تتميز بقوة العقلانية هي التي ترسم وتحدد المسار الاجتماعي، وهذا ما جعل هابرماس ينظر إلى النسق الكانطي على انه نسق فيه تفاؤل من حيث إيمانه بقدرة الفيلسوف على الإقناع والتأثير. ومن هنا فهابرماس رأى بان النسق الكانطي فيه نظرة تفاؤلية من جهة وإيمانه الشديد بما يمتلكه الفيلسوف من إقناع.إذن فالفضاء العمومي عند هابرماس هو الحيز الذي تتشكل منه الحياة الاجتماعية، وهذا يفضي بضرورة مناقشة عقلانية نقدية تفاعلية تواصلية تلتقي فيه سلطة الدولة مع المجال العام. إذا فالمتأمل في لغة هابرماس " إجماع– حقيقة – صدق –حرية– الفرص المتكافئة"، يكتشف دون عناء أننا أمام نظرية مفتوحة، نظرية يمكن إجمالها في كلمة واحدة إنها الديمقراطية بمعناها الحقيقي إنها ديمقراطية من نوع خاص قائمة على النقاش الحر الذي لا يأمر فيه أحد أحدا. إنما يقوم على أساس الإقناع . وهو ما يعرف عند كانط بالعلانية . هذا الإقناع هو نتيجة للحوار العقلاني المستند إلى أخلاقيات التواصل، إن هذه الديمقراطية وضعت حدا لسلطة الدولة و هيمنتها ليتم التخلي عن كل أنواع الإكراه والضغط في المقابل يكون هناك خطاب مؤسس على العقلانية الحوارية النقدية و بلوغ التفاهم والاتفاق و الإجماع عبر مجال عام يجمع بين العقلنة السياسية والمشروعية الديمقراطية من ثم تجد الديمقراطية شرطها النهائي في النشاط التواصلي العقلاني النقدي المرتبط بالأخلاق التواصلية المستندة إلى لغة تداولية حوارية عقلانية هكذا تتجسد الديمقراطية في أسمى صورها و معانيها.

2/ فلسفة هابرماس بين النقد والتجديد للفلسفة الكانطية :

إن هابرماس ومنذ مطلع الثمانيات وهو منشغل بالفلسفة الهيجلية والكانطية ناعتا إياهما بالفلسفتين التداولية و الهرمنطقية مقدما لما انتقادات، نجم عن هذه الانتقادات الدفاع عن مهمة الفلسفة بصفتها مؤسسة للعقلانية، إذا ومن خلال هذا ما هو الدور و المهمة التي منحهما كانط للفلسفة واعترض عليهما هابرماس؟ وكيف دافع هابرماس عن الفلسفة بوصفها مؤسسة للعقلانية اعتمادا على نقده للتداولية والهرمنطقية؟

ليبين هابرماس وفي مقاله إعادة تعريف دور الفلسفة، مهمة الفلسفة التي أعطاها كانط للفلسفة ويظهر هذا في قوله التالي" **إن كانط في تاريخ الفلسفة ادخل نمطا جديدا للتأسيس في الفلسفة، لاسيما حينما رأى أن التقدم الذي أحرزته المعرفة في مجال الفيزياء يجب أن يهم الفلاسفة، ليس لأن الأمر يتعلق بشيء حدث في التاريخ بل لأن هذا التقدم يثبت القدرات على إبداع المعرفة، و لهذا السبب حاول كانط تأسيس نظرية ترندستالية للمعرفة، وبناء ميتافيزيقا على غرار النموذج الفيزيائي**" [14].

من هذه المقولة يتبين بان كانط منبهر بالعلوم الفيزيائية وبالدقة التي وصلت إليها حتى قيل أن فلسفة كانط ما هي إلا غطاء فلسفي لفيزياء نيوتن ، وكان منشغلا بكيفية أن تصبح الميتافيزيقا علما مستقلا، ذلك إن كانط ومن خلال تحليله لمبادئ المعرفة اعتمادا على ما سماه بـ" نقد العقل المحض" فهو ومن خلال هذا عمل على التفريق في المعرفة النظرية بين القدرة على العقل العملي و القدرة على الحكم إذا فان كانط يمنح " **للفلسفة دور القاضي الأعلى الدور الذي يمتد ليشمل مجموع الثقافة، أي المعرفة النظرية و العملية والجمالية، فالفلسفة عند كانط لا تتصرف فقط إزاء العلم كمحكمة قضائية عليها و إنما إزاء الثقافة في مجملها** "[15].

إن المهمة الجديدة للفلسفة وحسب كانط بوصفها قاضيا أعلى، إنما تعرضت لانتقادات كثيرة من طرف بعض الفلاسفة أمثال ريتشاد رورتي * Richard Rorty ، ذلك أن هذا الفيلسوف انتقد المهمة التأسيسية التي قدمها كانط للفلسفة، لنجد بان هابرماس اتفق مع رورتي في نقدهما للفلسفة التأسيسية الكانطية غير انه يختلف معه في كون الفلسفة عند هابرماس هي التي تمنح الصفة الشرعية للعقلانية، ذلك أن هابرماس يريد أن يحافظ على مهمة الفلسفة من خلال البحث عن آليات جديدة " **فحتى لو تخلت الفلسفة عن الدوار الإشكالية المتمثلة في تحديد مواقع العلوم والحكم على الثقافة في مجملها فانه يمكنها ويتعين عليها المحافظة على الضرورة العقلانية باستثمار الوظائف الأكثر تواضعا التي تسمح بتعيين و صيانة المواقع التي تحتلها النظريات الطموحة و التي تؤول ما يقال**"[16].

إن هابرماس و من خلال إعادة النظر في الفلسفة التأسيسية إنما يكون قد شكك في النظرية الترندستالية للمعرفة، ذلك أن هابرماس غير مقتنع بالدور الذي أعطاه كانط للفلسفة و بهذا فان الفلسفة عليها أن تحظى و تتعاون مع جميع العلوم، إن الفلسفة و من خلال ارتباطها بمختلف العلوم إنما اكتسبت مهمة جديدة بخلاف المهمة السابقة لها من جهة و هيمنة الفلسفات الكبرى و ارتباط الفلسفة بشخص الفيلسوف، إن هذا الموقف الهابرماسي و المتمثل في تصديه للفلسفة التأسيسية الكانطية إنما هو موقف تعلمه من مدرسة فرانكفورت، و المتمثل في انفتاح الفلسفة على باقي العلوم الاجتماعية و النفسية والانثربولوجية" **فالفلسفة وحدها لا تستطيع بعد اليوم وضع اليد على الحقيقة والحقيقة هنا معرفة بأل التعريف** "[17].

يتبين لنا بأن مفهوم الفلسفة عند هابرماس إنما قدم لها مفهوم بخلاف الفلسفة التأسيسية الكانطية أي أن هابرماس لم يمنح للفلسفة المشروعية ودور القاضي الأعلى وإنما جعل الفلسفة مرتبطة مع جميع المباحث في إطار تكاملي و بالتالي لا تأخذ صفة القاضي الأعلى " **إن النظريات الفلسفية تستطيع أن تحافظ على علاقة متعددة المباحث، نظريات علمية مجاورة لها يمكن على سبيل المثال ربط نظرية الفعل التواصلي أو أخلاق المناقشة، أعمال علم النفس النمو. و من جانب آخر يمكن إيجاد حضور لدراسة المقارنة بين التصورات الدينية للعالم و فهم تصورات المؤسسات القانونية، ففي جميع الحالات يبدو انه في هذا المستوى الميتانظريي أن المقارنات تترابط فيما بينها وعلى العكس من هذا فالعلوم المتخصصة هي بدورها منفتحة على اقتراحات فلسفية ولدينا أمثلة على ذلك مثل انفتاح علم النفس المعرفي على الفلسفة**"[18].

يبدو من هذه المقولة أن هابرماس أعطى للفلسفة دورا مغايرا بخلاف الدور التأسيسي الذي قدمه كانط للفلسفة، إذ فالفلسفة في نظر هابرماس ينبغي أن تكون منفتحة على جميع العلوم و أن تساهم في بناء مجتمع تواصلي يتحقق فيه التفاهم بين الذوات انطلاقا من خلفيات مشتركة مبنية على تفاهم نقدي جديد و هذا كله بغية تحرير الإنسان و من ثم إبادة جميع الأوهام الإيديولوجية التي تعيق تحقيق تواصل حقيقي داخل المجتمع " **تسمح الممارسة التواصلية اليومية بخلق تفاهم بين الذوات موجه من طرف دعاوى الصلاحية التي تشكل في الواقع الحل الوحيد لتعويض الخصومات المتنوعة التي عرفتها و تعرفها المعرفة الفلسفية، فليست هناك تجربة موضوعية بدون تواصل بين الذوات. كما انه ليس هناك تواصل بين الذوات بدون تكون عالم موضوعي** "[19]

وفي سياق آخر يرى هابرماس بأن الفلسفة تحظى بأهمية من خلال قدرتها الهرمنطيقية التأويلية لتتخطى بذلك حدود اللغة والخطابات، مع ضرورة بقائها مرتبطة بالخلفية الثقافية الشمولية.

إن الفلسفة و بهذا الدور الهرمنطيقي بإمكانها أن تكون وسيطا بين نسق العلوم من جهة و بين الممارسة التواصلية اليومية من جهة أخرى أي بين العلم و العالم المعيش فهذه الوساطة الهرمنطيقية و التي تعتبر إحدى مهام الفلسفة من شأنها إذا ومن خلال هذا الدور إن تطور فهمنا للعقلانية إذ بهذا الفهم للعقلانية و العقل تكون مهمة الفلسفة عند هابرماس ليست تفسيرا و معرفة للعالم في كليته كما كانت تدعي الفلسفة اليونانية وفلسفة الميتافيزيقا ككل، إن مهمة الفلسفة كانت دائما موجهة نحو الشروط الصورية لعقلانية المعرفة و التفاهم اللغوي و الفعل، هذه الشروط يمكن البحث عنها سواء في الحياة اليومية أو في مستوى التنظيم و النسق المنهجي للتجارب أو كذلك في المستوى النسقي للمناقشة في هذا السياق تكتسي النظرية الحجاجية دورها لأن مهمتها إعادة بناء الاقتضاءات و الشروط التداولية الصورية لسلوك عقلاني واضح[20].

مما سبق ذكره يتضح أن هابرماس في إعادة تعريف الفلسفة و من ثم إعطائها الدور المنوط بها إنما كان متأثرا بالفلسفة التداولية و الهرمنطيقية، فهابرماس ومن منطلق تأثره بالجهاز المفاهيمي إنما عزز أطروحته النقدية لكانط حيث اقترح بدل نظرية ترندستالية للمعرفة، نظرية تهتم بالشروط الاجتماعية للمعرفة لأن الذي يهم هابرماس هنا ليس كيف اعرف ولكن كيف يمكن أن يكون الاندماج الاجتماعي ممكنا؟ إذا وفي خضم هذا يمكن أن نقول بان الفلسفة و من حيث ارتباطها بالهرمنطيقية إنما أصبحت لها مهمة فلسفية و هذه المهمة تتمثل في فهم العالم و ما يحيط به. في مجمل القول نقول بان هابرماس ومن خلال نقده للفكر الميتافيزيقي المطلق إنما عمد إلى تبيين بان الفلسفة ليس بإمكانها أن تتخطى أي تتجاوز المعرفة المطلقة فالفلسفة و بادعائها هذا إنما تقف في وجه العقلانية التواصلية، إذا و لبلوغ هذه الأخيرة وجه نقدا لاذعا للعقلانية الأداتية من خلال التصدي للنزعة الوضعية و العلموية. إذا تكون الفلسفة هي الفكر النقدي الذي يسعى إلى المساهمة في تشيد وبناء البنية الاجتماعية من خلال ربط جسور التواصل ليتبين كذلك بان هابرماس قد أعطى للفلسفة مفهوما آخر من خلال اعتراضه على الفلسفة التأسيسية التداولية الكانطية و تجاوزه لمهمة الفلسفة الكانطية بصفتها القاضي الأعلى وإنما أراد هابرماس أن تكون الفلسفة منفتحة على جميع العلوم، هذا و بالإضافة إلى الدور الهومنطيقي بوصفها الوسيط بين العلوم من جهة و النسق التواصلي من جهة أخرى.

إذن فالنظرية التواصلية العقلانية إنما بناها هابرماس على أسس فكرية نقدية، أي أن الفلسفة هي العمود الذي أراد من خلاله بلوغ نمط تواصلي نقدي بين البينذوات تكون هذه هي الفلسفة من وجهة نظر هابرماس.

3/دور الفلسفة في المناقشة و الإقناع :

اشتهر هابرماس بنظرية " العقل التواصلي" حيث كانت هذه النظرية بمثابة المنطق الجديد الذي تأسست عليه العلوم الاجتماعية، تستند هذه النظرية إلى فلسفة اللغة ذلك أن هابرماس يطمح هنا إلى تجاوز فلسفة الوعي" العقلانية، التجريبية " إلى فلسفة للتفاهم قوامها اللغة وهذا ما يبينه قوله هنا "**ما أنهك هو نموذج فلسفة الوعي ولئن كان الأمر كذلك فانه لابد من أن تختفي أعراض الإنهاك فعلا بالانتقال إلى نموذج التفاهم**"[(21)]. فكيف تكون اللغة أداة للتفاهم من منظور هابرماس؟

– اللغة و التفاهم :

أراد هابرماس أن يجعل علم الاجتماع فرعا من فروع علم الاتصال، ومن ثم يكون في إمكان علم الاجتماع الاهتمام بالقضايا و العلاقات التواصلية بين الأفراد على اعتبارات العلاقات التي تتم بين الفرد والآخر هي علاقات تواصلية أساسها اللغة، ذلك أن هذه الأخيرة شكلت عند هابرماس " **نسقا من القواعد تساعد على توليد تعبيرات لدرجة أن كل تعبير مصاغ شكل صحيح يعتبر عنصرا من هذه اللغة، ومن ثم فالذوات القادرة على استعمال هذه التعبيرات تشارك في عمليات التواصل لأنها تستطيع التعبير وفهم الجمل والجواب عليها** "[22].

من خلال هذا و إذا كانت نظرية العقل التواصلي تهدف إلى بلوغ تفاهم بينذواتي فما هو الدور الذي تلعبه العقلانية التواصلية فالمناقشة و الإقناع باعتبارها الهدف المنشود من هذه النظرية ؟

يؤكد هابرماس أن الهدف من التفاهم هو الوصول إلى نوع من الاتفاق بين الذوات، وهذا الاتفاق يؤدي بطبيعة الحال إلى تقارب أو تفاعل ايجابي بين المشاركين في العملية الحوارية، وهنا يأتي دور السياسي في الإقناع فرجل السياسة مطالب بإتقان الفلسفة حتى يقنع الآخر." **إن التفاهم هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين على أساس مفترض لادعاءات الصلاحية المعترف بها باتفاق مشترك** " [23]. يتضح بان التواصل غايته بلوغ الفهم " التفاهم " لكن في الحياة اليومية هل التواصل يؤدي دائما إلى التفاهم أم انه تعترضه حالة من الفوضى؟

يهدف هابرماس في مشروعه للكشف عن العراقيل التي تهدد عملية التواصل فعدم الفهم ممكن بين البشر ذلك أن هابرماس عندما يحدد آليات التواصل بين الأفراد فهو يحرص على أن النشاط التواصلي لا يكون مجرد فعل تتوجه به ذات معزولة ولكنه مناقشة وحوار تتم بين ذاتين فاعلين أو أكثر، أي أنه حوار يقوم بين ذوات مختلفة و تحكم هذا الحوار شروط إذ " **يتم من خلال علاقة تفاعل بين فردين آو أكثر خلال سياق العالم المعيش فمن حق كل شخص له القدرة على الكلام أن يشارك في النشاط التواصلي.وتتم عملية التواصل أيضا من خلال اللغة، و الهدف منها هو الوصول إلى اتفاق لتتحقق ديمقراطية الحوار.ووجود الظروف التي تضمن الإجماع الذي لن يتم إلا عن طريق قوة الأطروحة الأفضل فيكون بهذا لكل مشارط الفرصة في الدفاع عن رأيه دون سيطرة سلطة ما فيتم بذلك التحرر من أشكال الضغط و القهر الخارجي**"[24].

يتبين أن هابرماس حدد الشروط التي تتم على ضوئها العملية التواصلية، ليقترح على إثر هذا أربعة مفاهيم للفعل تقوم عليها نظريته الاجتماعية و هذه المفاهيم الأربعة تحدد العلاقة التي تربط بين الفاعل و العالم، كما أنها تضبط العلاقة بين الذوات تجاه نفسها و تجاه غيرها لذلك فان الفعل عند هابرماس يفهم على أنها إنجاز لمشروع عملي يقوم على تأويل أو فهم معين لوضعية ما يتحكم فيها الفاعل ووضعية الفاعل هي بمثابة جزء من محيطه. نفهم من هذا أن الفعل عند هابرماس يرتبط بالتجربة التي يقوم بها الفاعل فهو انعكاس لمواقفه وممارساته، لتكون المفاهيم الأربعة للفعل تحدد كالتالي:

أ- الفعل الغائي : يقوم الفاعل باختيار مجموعة من الوسائل و الأدوات التي تحقق له النجاح، قصد تحقيق غاية معينة. ويتحول هذا الفعل الغائي إلى فعل استراتيجي عندما يأخذ الفاعل في حسابه قرارات فاعلين آخرين أو على الأقل فاعل واحد في تقييمه للنجاح، وبهذا يكون الفعل فعلا نفعيا لأن العلاقات بين الأشخاص تنظم من خلال عمليات التبادل الخاصة بالسوق والسلطة [25].

ب- الفعل المضبوط بمعايير :(ويتعلق بأعضاء جماعية اجتماعية توجه سلوكها وفق قيم مشتركة ولا يتعلق بفعل فاعل معين منعزل على الآخرين " **وهذه المعايير المتبعة ناتجة عن اتفاق حاصل بين أفراد الجماعة تتطلب استجابة الأفراد في سلوكهم لهذه المعايير**"[26].

ج- الفعل المسرحي: هذا الفعل لا يتعلق بالفرد ولا بالجماعة و إنما يختص بالمشاركين في التفاعل، حيث يشكل كل واحد منهم بالنسبة للآخر دور الجمهور الذي يظهر أمامه لأن " **الفاعل يكشف عن ذاتيته عندما يحتك بالجمهور و بإمكانه مراقبة الذين ينفذون إلى عالمه الخاص حيث يشكل التفاعل مجالا تنكشف فيه ذاتية كل فرد بالنسبة للآخر حينما ينفذ إليها** "[27].

د- الفعل التواصلي : انطلاقا مما سبق يرى هابرماس أن الفعل لا ينحصر في المستوى الاستراتيجي المتعلق بالحوار الذاتي للفاعل مع نفسه، فينبغي على الفاعل إعادة إنتاج الفعل من داخله وان يوجه إلى نفسه الملاحظات التي قد يطرحها عليه ما، فالفعل يفرض نوعا من التداخل بين الذوات الفاعلة، وهذا يتم من خلال المشاركة في تواصل معبر عنه بواسطة اللغة. إذن يتعلق مفهوم الفعل التواصلي بـ:"**التفاعل بين شخصين على الأقل قادرين على الكلام و الفعل يرتبطان بعلاقة شخصية يسعى الفاعلون وراء تفاهم حول موقف علمي لكي ينسقوا بصورة توافق خطط عملهم و بالتالي أفعالهم**"[28]

خلاصة القول أن الأمر هنا يتعلق بحصول اتفاق بين المشاركين.

4/ الفلسفة ودورها في الفكر ما بعد ميتافيزيقي:

عرفت الفلسفة تحولات في القرن 19م حيث تغيرت مهمتها في الفكر ما بعد ميتافيزيقي إذ ظهرت ملامح هذا التغيير من خلال تقد التشيؤ بالإضافة إلى نقد الرؤية الموضوعية حول العلم و التقنية، ذلك أن الفلاسفة قبل هذا التحول كانت لديهم ثقة في قدرة الفلسفة من حيث إمكانيتها وقدرتها على تقديم الإجابات، لكن بعد هذا التحول أي بعد الفكر ما بعد ميتافيزيقي." **لم تعد الفلسفة تزعم بأنها تقدم أجوبة لها قوة الإلزام عن أسئلة نتناول نمط الحياة الشخصية وحتى الجمعية**"[29]

أي أن الفلسفة بعد هذا لم يعد بمقدورها أن تقدم إجابات مطلقة و شاملة تخص الحياة بصفة عامة و الحياة الفردية بصفة خاصة، ذلك أن هذا التحول فرض نمط من العلاقات بين الذات الفردية و كذلك بين ذات و ذات وهذا ما أطلق عليه هابرماس اسم العلاقة البينذاتية، هذه العلاقة تعد من أهم مهام الفلسفة في الفكر ما بعد ميتافيزيقي اعتمادا على المعطيات التي يقدمها " المنعطف اللغوي " كأحد أهم مواضيع الفكر ما بعد ميتافيزيقي، و قبل الإشارة إلى هذه المهمة الجديدة للفلسفة، سأتطرق إلى أهم القضايا التي شكلت التحول الجديد في تاريخ الفلسفة كما لخصتها ميق كوك في كتابها " العقل و اللغة " حيث بينت خمس مميزات لهذا الفكر ما بعد ميتافيزيقي[30]:

أ- لقد وضع الفكر ما بعد ميتافيزيقي التصور الجوهر للعقلانية موضع تساؤل واقترح تصورا إجرائيا أو صوريا بديلا لها.

ب . فيما يتعلق بمسألة صلاحية المعرفة وكيفية انجازها، عوض الفكر ما بعد ميتافيزيقي: النزعة التأسيسية للفلسفة، بنزعة القابلية للخطأ.

ج- تشكيك الفكر ما بعد ميتافيزيقي في فكرة أن العقل يمكن تصوره بشكل تجريدي ما وراء التاريخ و تعقيدات الحياة الاجتماعية، وعمل على وضع العقل في سياق ما، أي موضعته في الممارسات التاريخية الحالية.

د- كجزء من هذه العملية المتمثلة في وضع العقل في سياق ما، تم تعويض البنيات الفردية للوعي ببنيات تداولية للغة والوعي.

و- كجزء من التوجه نحو الممارسة والابتعاد عن النظرية المحضة والمجردة توقف الفكر ما بعد ميتافيزيقي عن هوس الفلسفة التقليدية بالحقيقية النظرية والوظيفية التمثيلية للغة إلى حد انه اعترف بالأخلاق العملية والوظيفية التعبيرية للغة.

يتبين من هذه المميزات للفكر ما بعد الميتافيزيقي أن الفكر الفلسفي عرف تغيرات عما سابقها و هذا يبدو من خلال المواضيع التي أصبح يتناولها الفكر الفلسفي المعاصر وخير دليل على أكثر المنعطف اللغوي و ربط النظرية في علاقتها بالممارسة و يعد المنعطف اللغوي أهم المواضيع الذي أعطى للنشاط الفلسفي أساسا منهجيا أكثر صلابة سمح له بالتخلص من إحراج نظرية الوعي.

إذن ومن خلال الأهمية التي أصبحت تحتلها اللغة في الفكر الفلسفي المعاصر نجد بان هابرماس يلح على ضرورة الاستفادة من المنعطف اللغوي إلى درجة أن هابرماس يجمع بين اللغة والفلسفة والعقل. وصحيح أن العقل أساس الفلسفة لكن حدوده في المنعطف اللغوي ليست أداتيه كما كان في فلسفة الوعي بل له استخدام تداولي تواصلي وهو ما يصطلح عليه عند هابرماس " بالعقل التواصلي " أو " العقلانية التواصلية "، ولتحقيق هذا عند هابرماس لم يكتف بالمنعطف اللغوي، بل انفتح على معارف مشتركة بغية تحقيق الهدف المنشود.

ويمكن القول بأن هابرماس لجأ إلى الفكر ما بعد ميتافيزيقي حتى يوسع مجال نظريته التواصلية و بهذا تزداد حدود التواصل ومن ثم القدرة على المناقشة و الإقناع ضمن إطار اللغة التداولية.

5/ العملية التواصلية و التحليل النفسي:

ننطلق في هذا العنصر من التساؤل التالي: **لماذا أخلت الأخلاقية الفلسفية المجال لهذه المعالجات النفسية و من خلال وظيفتها في الإسهام بالقضاء على الاضطرابات النفسية ؟**. قبل الخوض في شرح هذا العنصر علينا أولا أن نبين ما المقصود بالتحليل النفسي؟

التحليل النفسي هو مجموعة نظريات ومنهج أسلوب علاجي طورها سيغموند فرويد وأتباعه لدراسة النفس البشرية بطريقة تقسيميه افتراضية حيث قسموا النفس وفهموا العمليات النفسية افتراضيا ووضعوا لها تطبيقات. وحظي التحليل النفسي باهتمام كبير عند هابرماس حيث لعبت دورا هاما في العملية التواصلية إذ يحدد علاقة الإنسان بذاته و بالآخر في إطار العلاقة التحاورية، ذلك أن هابرماس استفاد من قراءاته لفرويد" **من خلال استخدامه لما يسميه فرويد بالوهم، هذه الآلية تتشابك مع هيمنة الايدولوجيا لخلق تواصل مشوه** "[32]. يذهب هابرماس إلى اعتبار أن اللغة تستطيع أن تلعب دورا إيديولوجيا لذلك ينبغي أن يتدخل التحليل النفسي لفهم هذه اللغة فهو " **يظهر لنا بوصفه دراسة تأويلية للسلوك المحفز بشكل لا واع وبالتالي له علاقة بالتفسير النقدي للنصوص أكثر مما يرتبط بالعالم التجريبي** "[33].

وهكذا تبين بان التحليل النفسي يعمل على تفسير العملية التواصلية من خلال التأويل ذلك انه يعمل على الكشف عن الأسباب الكامنة وراء المرض هذا الأخير الذي يؤدي إلى تشويه التواصل هذا ما أدى بفرويد إلى اقتراح عملية التأمل الذاتي كطريقة للعلاج. لنقول بأن هابرماس حينما أراد توضيح فكرة التواصل أي التواصل المريض

6/التأمل الذاتي : يقصد بالتأمل الذاتي العملية التي من خلالها يتساءل الوعي المتعقل في شروط تفكيره و يعتبر هابرماس أن هذا المنهج طوره فخته و صاغه بشكل مختلف كل من هيجل و فرويد و بالرغم من ذلك فان هابرماس يعترف بغموض مصطلح التأمل الذاتي، لأنه يمكن أن يكون هو التفكير في شروط إمكان الذات العارفة المتكلمة و الفاعلة عامة، ومن جهة ثانية التفكير في الحدود الموضوعة بشكل واع و التي لا تخضع لها عملية تكوين ذات يعنها.

إنما اعتمد على آراء فرويد ذلك أن هذا الأخير يرى بأن "**المؤسسات الاجتماعية وجودها لا يتوقف عند رعاية عملية الإنتاج و تطويره، بل يتعدى إلى كبت الشهوات التي تجعل الحياة الاجتماعية مستحيلة، وهذا الكبت هو ما يتسبب في تشويه عملية التواصل و التفاعل، لجهلنا القوى اللاشعورية التي تؤثر فينا وتحدد سلوكنا**"[34]. وهذه الظواهر ناتجة عن أشباه تواصلات كاذبة و من أفعال خاطئة لا قيمة لها في الحياة اليومية، وترجع إلى أعراض مرضية (باثولوجية) عصابية* وأمراض عقلية واضطرابات نفس جسدية. وسأركز هنا على الظواهر العصابية على اعتبار أنها الميدان الذي يتم فيه تشويه التواصل، ذلك أن المريض هنا والمصاب بمرض العصاب إنما تلازمه تعبيرات شفاهية أي انه يقوم بحركات جسدية أو يقوم بسلوكات قهرية وهذا ما يعبر عنه على انه في الذات سدا تواصليا بين "أنا" الكفاءة اللغوية الذي يشارك في العاب اللغة المستعملة ضمن التداوتية و هذا " البلد الغريب" في عمق ذواتنا [35]. من هذا يتضح بان هذا المريض و من خلال مرضه إنما يكون قد اخل بالتواصل أي أن تواصله كان مشوها و عليه كان لابد من الاعتماد على التحليل النفسي، إذ يبين هابرماس و من خلال اعتماده على الدراسات و التحليلات التي قام بها " ألفراد " Alfred lorenger ذلك أن هذه التحليلات إنما بنيت على أساس تأويلية الأعماق ،حيث قام بحوار تحليلي بين طبيب و مريض من وجهة نظر التحليل النفسي مشكلا كتحليل للغة، للكشف عن المواضع اللامعقولة من اجل فهم مشاهد تظهر تماثلا ، وهذا التأويل التحليلي الذي قام به هابرماس إنما يهدف إلى توضح المعنى اللامعقول للمظاهر العرضية طالما تعلق الأمر بالعصابات وهذه المظاهر تمثل جزءا من لعبة اللغة المشوهة التي يتصرف وفقها المريض. بمعنى هذا أن الطبيب يأخذ دور المفكر الذي بتأويل المواقف كتكرار مشاهد طفولية مثلا، ومن خلال تكرار هذه المشاهد يتشكل لديه معجم من الدلالات أو المعاني وهذه المعاني مرتبطة بالمريض الذي قام بتلك السلوكات. نجد بان هابرماس و باعتماده على تأويلية الأعماق أراد أن يقوم بتحليل اللغة وذلك بوضعه لفرضيات نظرية تعتمد عليها عملية التحليل و هذه الفرضيات الثلاثة هي [36]:

1- يأتي بالتشوه النسقي للتواصل إلى التداخل بين مستويين لغويين.

2- شرح نشوء التشوه بمساعدة نظرية متصلة بعمليات التنشئة الاجتماعية اللاسوية(مرضية) التي تمتد إلى العلاقة بين نماذج التفاعل الطفو لي وتكون بنيات الشخصية.

3- إن التطور النسقي لهذه الفرضيات النظرية ليس ضروريا في سياقنا..

إذ فهابرماس ومن خلال العملية التأويلية أراد أن يكشف عن الأسباب التي تؤدي إلى تشويه عملية التواصل لذلك أراد الاعتماد على نوع آخر من العلوم من شكل التحليل النسقي بغية الكشف عن الأمراض الخفية والتي تقف حاجزا في وجه الكلام والفعل ذلك أنه انطلق من مجموعة فرضيات تهدف إلى البحث والأسباب الكامنة وراء تشوه التواصل ساعيا إلى علاجه وإصلاحه معتمدا على العلوم النقدية والمرتبطة باللغة بشكل أساسي.

خاتمة

بناء على ما سبق يمكن القول بأن هابرماس و من خلال رفضه لفكرة الفلسفة المطلقة و امتلاكها للحقيقة إنما كان يؤكد على ضرورة التعاون بين العلوم المختلفة و هذا ما قاده إلى الاعتماد على التحليل النفسي كعلم من العلوم النقدية المساعدة بهذا يكون للفلسفة كجزء من هذه العلوم دورا كبيرا في التواصل من خلال العقل النقدي الذي يعد جوهر العملية التواصلية، ومن ثم يكون لهذا الفكر النقدي دورا في القضاء على التواصل المشوه بعلاج الاضطرابات النفسية التي كانت وراء عرقلة التواصل و جعله تواصلا مشوه، وإذا كانت غاية الفكر النقدي بلوغ تواصل حر عقلاني خال من كل أنواع الضغط و الإكراه فإن هذا ما كانت تصبو إليه الفلسفة و علاقتها بالتحليل النفسي لعلاج كل تواصل مشوه و جعله تواصل قائم على الفهم و الحقيقة، وهذا ما يكون على علم به الرجل السياسي حتى يمتلك العقل التواصلي الذي هو شرط العقل السياسي. بهذا نكون قد أجبنا على السؤال الذي انطلقنا منه.

الهوامش :

[1]-جان ماري فيري: فلسفة التواصل، ترجمة: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط12006م، ص19.

[2]-المصطفى حدية: الشباب و مشكلات الاندماج، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط 1995م ص 21.

*جورج هربرت ميد George Herbert Mead (1863- 1931م) عالم اجتماع أمريكي، من الرواد المؤسسين للاتجاه التفاعلي الرمزي .

[3]-مُحَمَّد نور الدين أفاية: الحداثة و التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص182.

[4]-إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابرماس، ترجمة :مُحَمَّد حسين فلوم، مراجعة مُحَمَّد عصفور، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، الكويت،د ط، 1978 م،ص309.

[5]-كارل اوتو آبل: التفكير مع هابرماز ضد هابرماز، ص13.

[6]-نفسه ص13.

[7]-Jurgen Habermas : La technique et la science comme << Idéologie >> , traduit de l'allemand et préface par Jean-René ,Gallimard , France.1967,PXV

<<C'est finalement la machine qui a le dessus, la machine à L'homme. >>

[8]-نور الدين أفاية: الحداثة و التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص210.

[9]-يورغين هابرماس: العلم والتقنية كايديولوجيا، ترجمة: حسن صقر، دار الجمل كولونيا، ألمانيا ط1 2003م،ص22.

[10]-جان مارك فيري: فلسفة التواصل، ص 75.

[11]-كارل آوتو آبل: التفكير مع هابرماز ضد هابرماز، ص16.

[12]-نور الدين أفاية: الحداثة و التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة ، ص 177.

[13]-أم الزين بنشيخة المسكيني: كانط راهنا، ص192.

[14]-نور الدين افاية: الحداثة و التواصل، ص56.

[15]-كانط: نقد العقل المحض،ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، د ط، ص53.

*ريتشاد رورتي Richard Rorty: من مواليد عام 1931 و توفي عن عمر يناهز 75 عام، فيلسوف ومفكر أمريكي، اعد واحدا من أهم فلاسفة ما بعد الحداثة و عرف من خلال مؤلفاته المبدعة في الفلسفة و السياسة و نظرية الأدب و مجالات أخرى، ومن أهم مؤلفاته كتابه الفلسفة و مرآة الطبيعة عام 1979.

[16]- يورغين هابرماس: الأخلاق و التواصل، ترجمة: أبو النور حمدي أبو النور حسن، المكتبة الفلسفية دار التنوير، د ط، 2009م، ص29.

[17]- يورغين هابرماس : استفتاء من اجل دستور أوربي، حوار ترجمة: مُحَمَّد الأشهب، حوار في الفلسفة و السياسة، مجلة أوآن تصدر عن كلية الآداب بالبحرين، عدد5، 2004م، ص35.

[18]-يورغن هابرماس : استفتاء من اجل دستور أوربي، ص36.

[19]-نور الدين أفاية: الحداثة و التواصل، ص58.

[20]- j,Habermas : Théorie de l'agir communicationnel. Trad jm, ferry, parris,t1, 1987,p18 .

[21]- يورغن هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، ترجمة: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة دمشق، د ط، 1995م، ص454.

[22]-مُحَمَّد نور الدين افاية: الحداثة و التواصل، ص198.

[23]-يورغين هابرماس: الاخلاق و التواصل، ص 153.

[24]–عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، بحوث فلسفية أخرى، منشأة المعارف، جلال حزي و شركاؤه، ط1، 2002م،ص 107،108.

[25]- Jürgen Habermas : Logique des sciences sociales, traduit Rainer Rochitz, paris édition1987, P419.

[26]– يورغين هابرماس: العلاقة بالعلم ومظاهر عقلانية الفعل، ترجمة:جورج ابي صالح، سوريا دط،2004م، ص23.

[27]–نفسه ، ص23.

[28]– يورغين هابرماس:العقلانية بالعالم و مظاهر عقلانية الفعل، ص23.

[29]يورغين هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية،ترجمة: جورج كتوره، المكتبة الشرقية،ط1، 2006م، ص7.

[30]–Meave cooke : language and reason(a study of Habermas's pragmatics),first mit, press paperback, édition, 1997, p38.

[31]–محمد نور الين افاية: الحداثة و التواصل، ص74.

[32]–يورغين هابرماس: العلم و التقنية كايديولوجيا، ص229.

33– ايان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابرماس، ص354.

[34]- Jürgen Habermas : Logique des sciences sociales, p253.

[35]- Jürgen Habermas : Logique des sciences sociales, p255.

قائمة المصادر و المراجع :

أولا : المصادر

1–يورغين هابرماس: العلم والتقنية كايديولوجيا، ترجمة: حسن صقر، دار الجمل كولونيا، ألمانيا ط1 2003م.

2– يورغين هابرماس: الأخلاق و التواصل، ترجمة: أبو النور حمدي أبو النور حسن، المكتبة الفلسفية دار التنوير، د ط، 2009م.

3– يورغين هابرماس : استفتاء من اجل دستور أوربي، حوار ترجمة: محمد الأشهب، حوار في الفلسفة و السياسة، مجلة أوآن تصدر عن كلية الآداب بالبحرين، عدد5، 2004م.

4– يورغن هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، ترجمة: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة دمشق، د ط، 1995م.

5– يورغين هابرماس: العلاقة بالعلم ومظاهر عقلانية الفعل، ترجمة:جورج ابي صالح، سوريا دط،2004م.

6–يورغين هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية،ترجمة: جورج كتوره، المكتبة الشرقية،ط1، 2006م.

7- Jürgen Habermas : Logique des sciences sociales, traduit Rainer Rochitz, paris édition.1987.

ثانيا : المراجع

1–إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابرماس، ترجمة :محمد حسين فلوم، مراجعة محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، الكويت،د ط، 1978م،ص309.

2–المصطفى حدية: الشباب و مشكلات الاندماج، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط 1995م ص 21.

3–أم الزين بن شيخة المسكيني: كانط راهنا، بيروت ، 2006.

4–جان ماري فيري: فلسفة التواصل، ترجمة: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط12006م.

5–كانط: نقد العقل المحض،ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، دت.

6–محمد نور الدين أفاية: الحداثة و التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، دت .

7–عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، بحوث فلسفية أخرى، منشأة المعارف، جلال حزي و شركاؤه، ط1، 2002م.

8-Meave cooke : language and reason(a study of Habermas's pragmatics),first mit, press paperback, édition, 1997.